

النحو المغربي بين فضل القرآن وجهود النحاة

The magreben grammar between the virtue of the Quran
and the efforts of the grammarians.

أ. عبد القادر بن فطة*

تاريخ الاستلام: 25-03-2019 / تاريخ القبول: 10-06-2021

doi 10.33705/0114-023-004-003

التعريف الرقمي للمقال:

الملخص: لقد ضرب النحو المغربي بأصالته أعماق الدرس اللغوي، هياً له القرآن المقومات لاحتضان تراكيبه المتنوعة. ولعل من معالم الأصالة أنه أمد التراث اللغوي بالثوابت التي تنير الحقل اللغوي. هذا ما أدركه نحاة المغرب فضبطوا أصولها وقيدوها بمعايير خاصة كميّار الاستدلال والاحتجاج على منوال الأصوليين في طريقة استقراء النصوص.

فقد رصدوا حركته في الدرس اللغوي، فاهتموا بمسائله للتنظير والتّقييد والتعليم، فقد شكّلت مؤلفاتهم كألفية لابن معط التي تأثر بها ابن مالك، والشّرح الكبير والصغير للمكودي وشافي الغليل لمختار الشنقيطي ذخيرة نحوية أنت ملكة المتعلمين حظها من الفائدة العقلية والمتعة الوجدانية.

الكلمات المفتاحية: فضل القرآن، أصالة النحو المغربي جهود النحاة.

* جامعة مصطفى اسطمبولي - معسكر الجزائر، البريد الإلكتروني: Aek055@hotmail.fr (المؤلف)

(المرسل)

Abstract : By its originality, The Maghrebin grammar, has affected the depth of the linguistic lesson. The Quran has set the foundations to host its various structures. One of the features of this originality is that it has provided, to the linguistic heritage, the constants that enlightened the linguistic field. This is what the Maghrebin grammarians have realized, so they have adjusted their origins with special criteria, such as the criterion of inference and argumentation following the fundamentalists in their method of inducting texts.

They have studied its movement in the linguistic lesson, interesting in its issues in theorizing and learning. Their writings were such as 'Alfiat Ibn Maat', and the Great and Small explanation of Elmakodi and Shafi al-Ghaleel of Mokhtar Shankiti who have left a grammatical corpus, that provided the learners the mental benefit as well as the spiritual pleasure.

The question asked here is: did the Maghreben grammarians present a rich scientific corpus needed everyone who is related to the grammatical knowledge?

Key words: virtue of the Quran, originality of the Maghreben grammar, the efforts of the grammarians.

مقدمة: شكّل القرآن الكريم موقفا هاما للعقل أمام ما يحتويه من علوم لغوية وكونية ليوزع جهوده المعرفية لتكون هذه العلوم منصهرة في لبنة واحدة. فما من علم إلا وكان القرآن الكريم هو الحقل الذي ينبعث منه.

فهذا الأمر يخص كل المعارف التي برزت في التراثين الإسلامي والعربي، وعلى رأسها علم النحو، فكان النص القرآني المنطلق الحقيقي له من خلال التعامل معه.

فأهمية النحو أنه ترعرع ونما في كنف القرآن الكريم، ونشأ على أساس تخطيط رباني يبعث على الدهشة، وتشهد على عدم سبق الإنسان بالاشتغال في توظيفه. فهو لم ينشأ بصورة عفوية إنما وضع كوحدة أرقى وأرفع من غيره، نلمس فيه السر الإلهي من خلال معالمها الجليلة التي تدل على ضرورة الاعتراف برقيه الذي يدركه متذوق العربية.

السؤال المطروح هل قدّم نحاة المغرب مادة علمية غزيرة يحتاج إليها كل من يمت إلى علم النحو بصلة؟

نحاول من خلال هذا البحث أن نبين رقيّ النحو المغربي ليغدو نافذا في ملكة العلماء في النّظم والشّرح والتّأليف، الذي نَمَى قدراتهم وحَرَكَها ليستلوا منها صفاء إنتاجهم فاسترسلوا في بيان قيمته، واتبعت في هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي للوقوف على المظاهر البارزة لفضل القرآن على النحو المغربي، إنّه يشكّل جوهر الجودة للنحو المغربي يحمل أسراره، ويتضمن مقاصد محددة متعاضدة مع لوازم فكرية ظاهرة أو خفية.

فضل القرآن على النحو المغربي: لقد كرسّ نحاة المغرب مبدأ التّبعيّة للقرآن

بالوعي والفهم قصد تطويره، وجعله منارا يبعث شعاعه لكشف فلسفة هذا العلم وحلّ عقده، وقد سلك علماءه الاتجاه العلمي للإفهام والإقناع في تحليل مسأله، فاستقرّوا التراكيب النّحويّة الواردة في القرآن لاستخلاص الأصول، فكانت قياسا يثبتون بها القواعد للتعليل والالزام وذلك لأنّهم (يחסون بنوع من التّخلف عن المشاركة فحاولوا أن يعوضوا ذلك بتأكيد تفوقهم رغم بعدهم، وسبقهم رغم غربتهم، ومن هنا نراهم يتعصبون للغة، حيث يفتنون علم النحو ويقتلونونه درسا وتأييفا)¹ وكان القرآن في حواضره العلميّة يغذي الحركة النّحويّة من فيضه المتدفّق المتصدّر في استكشاف عمق النصّ القرآني، وصور إعجازه في درسه فعمل النّحاة بجديّة في استيعاب جزئياته تكوينا وأصالة. وكان ما قدموه من جهود يبلغ بهم إلى ذروة صاعدة من بين الجهود العلميّة المبدعة، فقد رسّخوا النّوّة الصّحيحة التي انبثقت منها مسأله.

لقد أثبت النّحو في نظر نحاة المغرب صبغة شاملة فهو لم يكتف بالكلمة المفردة بل أصبح منهجا لتحليل الجمل على معايير ثابتة تستمد موضوعيتها من مصادر اللغة كاشفا عن أنساق تركيبية بديعة، جامعا الأبنية الكلية للنص مستثمرا ما أنتجته قرآح العرب وعبقريّتهم، يصب كلّ في نظام لغوي مشتملا على كلّ الاستعمالات اللغويّة ذات الأنماط المختلفة. إنّ الاهتمام به دليل على نضجهم اللغوي خاصّة جودي بن عثمان وعبد المالك بن حبيب السّلمي 528هـ وابن السّيد البطليوسي 238هـ فقد حموا اللغة من اللحن والابتذال فهاجروا إلى المشرق، واحتكوا بكبار النّحاة خاصّة الكوفيين منهم كالكسائي والفراء وأخذوا عنهم ومنحوا القدرة للمهتمين بها من الولوج في أسراره

واستقراء حقائقه والحرص على بيئته تحقيقا وتوثيقا، ما جعل علم النحوي نشأ على يد كبار العلماء كابن معط 628 وابن أجروم 723 هـ لتستقر ضوابطه ومضامينه في كتبهم وكان معيارهم اللغوي الإتقان والدقة لضبط القواعد لذلك مخصوا الكلام، ولم يقبلوا إلا ما يناسب الأقيسة العربية الفصيحة.

كثرت المؤلفات رغم اختلاف توجهات مؤلفيها إلا أن طبيعة علم النحويملك آليات جعلته يفرض على أصحابه المعارف اللغوية المدعمة بالملكات لضبط محتوياته ومقاصده. والظاهر من مؤلفاتهم أنهم فهموه فهما عميقا لاعتمادهم على لغة القرآن، ما جعلهم يرفعون عن اللغة الاضطراب في تراكيبها، وتوضيح مراميها والكشف عن إعجاز القرآن. ولعل معرفة نحاة المغرب لأسرار هذا العلم جعلهم يدركون أساليب التعبير على نحو تلقائي ومن واقع اللغة وما ينفرد به القرآن من نظام متكامل نحويا. فلغة القرآن تجمع بين الذوق والنظام العقلي، فأثرت علم النحوي بطرق الأداء وسائل التعبير (لغة القرآن الكريم للسان العربي المبين. وقد كانت أساليبه في قراءته الموثق النموذج الذي اعتمد عليه أئمة النحوي الوصف والتفعيد)²، هي المثال الأعلى، فاجتهاد نحاة المغرب في التأليف وشرح المتون، منبعهما عمق اللغة فإذا زاغت عنها لحقها الخلل، وأصابها الابتذال.

أفاض النحاة في موضوعات كثيرة، وأعملوا عقولهم في استنباط القواعد والأحكام. فحددوا الوظائف النحوية للأنماط التركيبية التي شهدا الارتقاء اللغوي، وتأكيد وجوب وضع النحو العربي وتمحيصه ليصبح أداة إيحائية، من أجل تيسير أغوار الخطاب اللغوي والأدبي معا، وإخضاعه لنظام لغوي خال من التعقيد والتعسف، ويحقق الصحة النحوية، اعتمادا على لغة القرآن في تحديد العلاقات الأساسية في الجملة على أساس أنها وظائف، يؤديها كل مكون بحسب ارتباطه لما بعده وما قبله. حدد النحاة شروطا في التعامل مع نحو القرآن أن يكون النحوي صاحب علم لغوي ومعرفة بالقرآن والسنة معرفة دقيقة، والتبصر في الخوض في قضايا النحو الذي فتح بابها سيبويه في إخراج المسائل من حيز الإشكال إلى حيز الوضوح والتجلي. وأن تكون النظرة علمية مؤسسة على تعيين الأنماط النحوية المتوخى إيضاها في السياق، وتظهر فطنته في إبراز الجوانب الدلالية في المواطن المختلفة من النص التي تتماشى مع الأنساق. ولا يتوقف العمل هنا

ضرورة التّطرق إلى دلالة الاقتضاء، وهي نوع من أنواع الإشارة وهي ما كان العامل فيه مضمرا إمّا لضرورة صدق المتكلم وإمّا لصحة وقوع الملفوظ به .

فالتّصور النّحوي عند نحاة المغرب أساسه الاعتناء بالجملة واللفظ، والصياغة لتحقيق الإعراب حتى تتفق مع التّأصيل والتّجديد، فالإعراب في التّصور النّحوي دليل المعنى، وهو خاضع للتطور والتّغير حسب العامل، ولذا فقد نال الإعراب عناية فائقة محاولين في ذلك تحديد دلالاته وتوليدها. حكّموا منطق اللغة في تناولهم الدّرس النّحوي. فالذي توصلوا إليه امتاز بالنّضج وانبعث من إحاطتهم باللغة على أنّها وسيلة للفهم واستنباط الأحكام. فقد اهتموا بفطنتهم إلى الإبانة عن كثير من أسرار هذا الدّرس وهذا ما نجده ماثورا في كتبهم. فكانت المادة القرآنيّة برهانا على تناسق فاعليّة علم النّحوي في الثّقافة اللغويّة في المغرب العربي والنّشاط الفكري، إمّا على المستوى المنهجي أو على المستوى الإجرائي.

فالدّرس النّحوي اختطّ منهجه من القرآن الكريم، وأدخل في بناء النّظام اللغوي للعربيّة. فكانت أبوابه ذات طابع ثابت، وموضوعاته تأخذ الصّدارة في الدّراسات ذات الصّلة بالعلوم العقليّة. فجعله القرآن عنصرا في التّفكير ووسيلة في نقل المفاهيم لغزارة المعاني والمقاصد، وصار لغة المصطلحات العلميّة لدى المدارس النّحويّة وأصحاب القراءات. فوجدوا في مكوناته الغاية في تحقيق المعالجة المنطقيّة للتصورات المخزونة بصور أفضل وأكثر نضجا فاستقرت مفاهيمه في دلالاته. فبفضل القرآن أصبح ركيزة رئيسة لدى أهل العلم من أصوليين ولغويين ومفسرين. فما قدّمه القرآن للنّحو المغربي من إضافة نقح المادة اللغويّة لذوي الاختصاص في اللغة لتوثيق علمهم.

وجد النّحوي أوج نشاطه في حضان القرآن الكريم، فنضجت المسائل وتأصّلت المصطلحات. ولذلك انبرى نحاة المغرب إلى وضع آليات كفيّلة بالحفاظ على نظامه في الكتابة. وعظم ذلك بملامسة ما يكتنزه النّص القرآني من أنماط تركيبية. حفرهم إلى تصنيف المؤلّفات لتكون حصيلة ثراء استلهمه أهل النّحو لينتفع به علماء اللغة والشريعة. فقد أمد القرآن الدّرس النّحوي المغربي بذخيرة نحيويّة للاحتجاج بالكلام الفصيح للتأكيد على مرجعيته في الموازنات اللغويّة، واستنطاق حقيقتها الماثورة في التّراث.

أدرك نحاة المغرب أنّ في القرآن إشعاعاً بيانياً تتبصّر به ما بلغته الدراسات النحويّة مع ضرورة الوقوف على أحكامه لاستقراء ما جاء فيها من تल्प وإعجاز وتعليل، تجاوز كلام العرب إلى ظواهر جزئية أرسّت ضوابطه الكلية، وفهم ما اعتاص من تراكيب للكشف عن جوانب مهمة في الدرس النحوي. فالقرآن الإطار الوحيد الذي يؤدي به النحو متطلباته، ويفسر مقاصدها، ويخلق التواصل بين النصّ والمخاطب. فهو لا يقف عند مضمون السياق بل يبيّ الشّعور الملائم مع التمتع بخصائص التعبير وتلويح الخطاب.

فتح النحو العربي آفاقاً واسعة لنحاة المغرب، فقد صار تأصيله مشروعاً لغوياً واتجاهاً علمياً بعد أن كان تجاوباً سلفياً فطرياً مع مؤلفات المشاركة. ولما كان القرآن المرجعية التي لا تمارى؛ فإنه هيمن على سائر الحقول اللغوية، واكتسب النحو مشروعيته عبر التّفوق وتخطي التقليد. إن هذا النحو تمحور حول مسائل اختلفت فيها المدرستان البصريّة والكوفيّة واستفادت من القراءات القرآنيّة والشعر العربي، فقدّم نحاة المغرب تفردات جديدة واجتهادات منّت العلاقة مع المرجعية المألوفة، فارتقت بالنحو إلى مستوى راق. واقتضى- هذا الوضع أن تنضج المعالجة إلى مستوى الدرس النحوي المرتبط بالنصّ القرآني وُلد عن طريق التّأليف علاقات داخلية تشكّل لحمة النحو العربي.

- جهود النحاة في تأصيل الدرس النحوي: لنحاة المغرب جهود جليّة، وآثارها وزنها في اللغة. فقد رصدوا حركة الدرس النحوي في الحقل اللغوي، فاهتموا بمسائله لاستنباط الأحكام من النصوص. لذا نجدهم يعالجون موضوعات كثيرة في كتبهم وأكّدوا على ضرورة النحو في إدراك أسرار التراكيب ودلالاتها. فقد أسهموا في وضع اللبنة الأولى في تأصيل أسسه، فلم يغفلوا عن شيء يستحق الخوض فيه، إذ أبدعوا في طرح مسائل كثيرة تشكّل ذخيرة نحويّة، يغلب عليها الاستقصاء والتعمق في التحليل، واستنباط المبادئ والأصول من الجزئيات وتميزوا بالفطنة وحسن تصريف الكلام والكشف عن المعاني بوجوه الأداء وأصول اللغة، إنهم يمثلون قفزة مهمة في الدراسات النحويّة التي اعتمد عليها العلماء والباحثون قديماً وحديثاً في منهج البحث العلمي والحركة اللغويّة. ونظراً لأهميته اعتنوا بكلّ ما يتعلّق بلغة لقرآن للتوصل إلى المقاصد من خلال ما يضمه السياق بغية تأصيل المعايير في استنباط الأحكام الناتجة عن تغيير النّمط التركيبي. فتنوعت طرق

التّأصيل والتّجديد فمنهم من أثار النّظم، ومنهم من أسهم في شرح المتون وأبدع جلّهم في التّأليف ونظم المتون.

1 - نظم المتون: لقد كان نظم المتون من أبرز الإنجازات التي قدّمها نحاة المغرب إلى النّحو العربي، ووجد فيها المشاركة الإشعاع النّحوي الذي يؤصل العلم بالنّسبة للطلبة. فأشادوا بها كابن مالك مع ألفيّة ابن معط. وقد تميّزت بالدّقة في تناول المسائل النّحويّة فأزلت كثيرا من الغموض الذي اكتنف المصادر الكبرى في علم النّحو كالكتاب لسيبويه. فأوصلت النّحو العربي إلى هيئته الصّحيحة التي يستطيع طالب العلم بها أن يأمن ما يقرأ، وبما يستشهد. فالمتون مصدر من مصادر النّحو بوصفها وثيقة شاهدة على صحة هذا العلم. فهي أكثر انسجاما مع اللّغة فيها أصول النّحو وأحكامه، وما يوافق المقاييس دون حاجة إلى التّأويل.

ومن النّحويين الذين أصلوا للدرس النّحوي عن طريق نظم المتون يحيى بن معط الرّواوي 628هـ كان له إسهام في خدمة النّحو العربي، فقد عكف على دراسة أسراره وعرف كيف يقترب من نحو القرآن بأسلوب علمي جمع فيه بين ثقافته الخاصّة ودكائه بغيّة التّفويق بين الإعراب والمعاني، فهو أشبه بعلماء الشريعة حتى أصبح مرجعا يعود إليه العلماء للاستشهاد بأرائه النّحويّة (فقد رحل إلى بلاد مصر، فلقى المشايخ وباحث العلماء وناظرهم)³ لقد عني بخدمة القرآن، وانصبت دراسته على نحوه وكان يرى لا سبيل إلى مبتغاه إلا بالوقوف على أسرار القرآن التّركيبية، وإدراك دقائقه، والإلمام بأساليب العربيّة، وكان حاضرا بذهنه وفطنته، فلا يقبل على كتاب الله وكلام العرب إلا مبينا للمعاني وأضرب الكلام.

أحسّ الرّجل بضرورة التّقرب من النّحو العربي لمواجهة التّحديات ومنها ظاهرة اللحن، وعدم الاكتفاء بما أنتجه المشاركة فأتجه ابن معط إلى إثبات الارتقاء العلمي وعمل مخلصا على التّماس الدّقة في التّغيير والتّجديد في الدّرس النّحوي. لقد اجتهد في سبيل حمايته من خلال مؤلفاته مبينا فيها التّجديد والقدرة على التّعامل مع اللسان العربي. فكان من أهم ما ألف الرّجل ألفيته التي أبدع فيها حتى صار مصدر إلهام لابن مالك (سبق ابن مالك لهذا العمل الفذّ ورغم ما يقال عن عمله فله المبادرة والسّبق)⁴.

كان لابن معط الفضل في ظهور هذا النوع من النظم رغم أن اليشكري سبقه لكن لم يكن له صدى، أبان على أنها جوهر الدرس النحوي لمن سيأتي من بعده. فإبداعه في التعامل مع النحو العربي وظن قوته، وعمق الوعي بأهميته في الحياة العلمية. فحرصه تخطى الصعاب بوضع ضوابط تصون الدرس النحوي، فكان ما وضعه إشراقاً لعصمته من الابتدال (وإذا كانت ألفتة ابن مالك نالت الشهرة المعهودة، فإن ذلك لا يضع من قيمة عمل ابن معط الذي أفاد منه صاحب الخلاصة، شكلاً ومضموناً، فلقد جرى على منواله في عدة أبيات، وفي طريقة النظم، كما اقتبس من معانيه وألفاظه الشيء الكثير)⁵ من ذلك يقول ابن معط في ألفتته:

القول في توابع الاسم الأول نعت وتوكيد وعطف وبدل⁶

ويقول ابن مالك:

ويتبع في الإعراب الأسماء الأول نعت وتوكيد وعطف وبدل⁷

فقد أسهب في إظهار ضوابط النحو العربي من خلال ألفتته ووظف ملكته في التعامل معها فهي مبنية على القوانين تحكم الأحكام، وألغت مبدأ التبعية قصد تطوير الدرس النحوي، وجعله مناراً يبعث شعاعه لكشف فلسفة هذا العلم وحل عقده. وسلك المسلك الذي اتبعه نحاة عصره في الأخذ عن البصريين والكوفيين وانتقاء بعض آراء البغداديين، تناول مسائل كثيرة اعتماداً على اجتهاده الخاص كمسألة عدم تقدم خبر مادام على اسمها جاء في ألفتته

ولا ولا يجوز أن تقدم الخبر على اسم ما دام وجاز في الآخر⁸

كما يظهر عليه نوع من الميل إلى البصريين خاصة سيبويه في إعراب الأسماء الستة

وستة بالواو رفعا إن تضاف والياء في الجروفي النصب ألف⁹

والذي نستخلصه أن ابن معط حكّم منطق النحو العربي، وكان اهتمامه كبيراً به واستطاع الإلمام بضوابطه. فالذي توصل إليه امتاز برؤية شاملة انبثقت من إلمامه بالنحو العربي على أنها وسيلة للفهم واستنباط الأحكام، فقد اهتدى بفطنته إلى الإبانة عن كثير من مسائله، وهذا ما نجده مبيثوثاً في ألفتته.

2- الشّروح: بادر نحاة المغرب إلى شرح الكتب والمتون حين أحسوا بضرورة فهم أسرار اللغة والدّين. وكانت فكرتهم تحمل الخطوط الكبرى لتأصيل الدّرس النّحوي. وكان لهم منهج خاص استندوا إلى عبقريتهم للتمييز بين اجتهادهم وعدم تقليد المشاركة. وقد ارتكزوا على القرآن الكريم بالدّرجة الأولى قبل الحديث والشّعر، فنّبها على كثير من الأحكام فاتت نحاة المشاركة. فالتّمسوا الموضوعيّة والدّقة في التّعامل مع ما كتبه سيبويه والخليل وغيرهما لإبلاغ المتعلّم على ما يهدفون إليه، فآثروا أسهل السّبل للتوضيح والتّبسيط لما نعت بالغموض. فقد تصرفوا في الإعراب تصرفا طال به شرحهم، ينقلون المتعلّم إلى أجواء الأداء النّحوي الذي يظهر مهمة الكلام في التّأثير والاستمالة، بعرض الصّيغ القياسيّة على نسق جديد لإظهار سماحة العربيّة.

ومن النّحاة الذين التّفّتوا إلى الشّرح ابن أبي ربيع السّبتي 688هـ الذي عاش الوحدة العلميّة بين الأندلس والمغرب فقد نبغ في النّحو منذ صغره ودرّسه بأمر من شيخه الإمام الشّلوبين 645هـ الذي كان يحفّزه بتدريس صغار الطّلبة. حتى قويت شوكته واستتمت طريقتة. فقد ألف كتابه المشهور البسيط في شرح الجمل للزّجاجي الذي يعدّ أول مؤلّف خاص بالمتعلّمين لأنّ الزّجاجي أتبع فيه الاختصار والتنظيم والتّذليل، عكس الكتب التي سبقته كالكتاب لسيبويه كان موجها لفئة خاصّة متمرسّة في العلم، وكان بحاجة إلى تسهيل وهذا ما قام به المبرد في المقتضب 286هـ. فخصوصيّة هذا الكتاب استمالت نحاة المغرب والأندلس كابن الباذش 528هـ وابن خروف 609هـ وابن معط.

بذل السّبتي في شرحه فيه جهدا في إخضاع علو النّحو تحت تصرف المتعلّمين، يسّر المقل، وأكمل النّاقص، وقيد البيت بقائله. لقد أحسّ بضرورة التّقرب منه لمواجهة من خالف سيبويه والزّجاجي ومنهم ابن طراوة 526هـ، وعدم الاكتفاء بما قاله بل وقف رادا بعض الآراء التي ذهب إليها ابن طراوة. من ذلك أنّ والهاء رفض وجود ضمير الأمر والشّأن فهما في رأيه لا منقول فردّ ابن أبي الرّبيع مستشهدا بقوله تعالى (من يأتي ربه) طه 74 وقوله (إنّها لا تعمى الأبصار) الحج 46. وهما ضميران يعودان على شيء متقدم ولا على ما دلّ عليه الكلام، ولا يصح أن يقال فيهما إلا أنّ الضّمير من إنّه ضمير الخبر والضّمير من فإنها ضمير القصة¹⁰. كما خالف ابن طراوة وأيد سيبويه في مسألة إلحاق تاء التّأنيث (اعلم أنّ الفعل إذا أسند إلى المؤنث، فإنّ كان التّأنيث غير حقيقي فأنت في

إلحاق تاء التأنيث الفعل بالخيار، تقول طلع الشمس وطلعت الشمس قال تعالى: وجمع الشمس والقمر) القيامة 9 وذهب ابن طراوة أن ما ليس من باب طلع الشمس لأنه جمع إنها تستند إلى اثنين وهو هنا قد اسند إلى الشمس والقمر فغلب المذكر وهو عنده بمنزلة: زيد وهند قاما، وما ذهب إليه ابن طراوة يدفعه السماع.¹¹، عمل الرجل مخلصا على التماس الدقة في التغيير والتجديد، التعسف والانزلاق الذي انتاب بعض النحاة كابن طراوة وابن مضاء، ووجد في منهج شيخه أبي علي شلوبيين الأرضية الثابتة لاستلزام حقيقة الدرس النحوي. واجتهد في سبيل خدمة النحو العربي من خلال مؤلفاته خاصة "البسيط" مبينا فيه القدرة على التعامل مع اللسان العربي. لذا رأى ضرورة تخصيص شروح لائقة لمؤلفات كبار النحاة يترعرع الدرس النحوي بين أحضانها.

إن تمسك ابن أبي الربيع بالنحو العربي لم يقف عند ارتقائه إنما أبان على أنه جوهر اللغة العربية تتصل بوجود الأمة. فإبداعه في التعامل مع أسس على تقديسه، وتوطين قواعده على وعي عميق بأهميته في الحياة العلمية. وبوصفه آلة عقلية فهو الرابطة المتينة بين المستويات اللغوية.

كما كان لأبي زيد عبد الرحمن صالح المكودي 807 هـ النحوي المعروف فضل في تأسيس مدرسة ابن مالك بالمغرب، وأول من درس كتاب سيبويه (لعله أول من أقرأ ألفية ابن مالك، ويذكر شارحوها إنه تلقاها من بعض طلبته، فاستحسنها، وأقرّ تدريسها ثم وضع عليها شرحه الكبير والصغير)¹² لقد أظهر قدرة فائقة وثقافة واسعة في الإحاطة بأسرار النحو العربي، وخفايا الأسلوب العربي، إلى جانب اطلاعه على كتب النحاة المشاركة، كما كان المكودي متذوقا للشعر العربي، مطلقا على أصول اللغة في كلام اللغويين الصحابة، جمع إلى جانب ذلك كثيرا مما يتصل بالمأثور. إن كان شرحه الكبير للألفية قد ضاع فإن الشرح الصغير بقي معتمدا في التعليم والتصنيف، فوضعت له الحواشي والتعليقات، ومن الذين تناولوه علي بن البركة التطواني 1120 هـ ومحمد بن حمدون بن الحاج 1310 هـ. واتبع في هذا الشرح منهج الاختصار والتوضيح والتدقيق في التعامل مع الشواهد القرآنية التي تتطلب جهدا في إخضاع النظم تحت تصرف لغة القرآن. فقد أحس بضرورة التقرب من النص القرآني لتأصيل القاعدة.

من المسائل التي وقف عندها المكودي عمل اسم الفاعل وأصلها بالتبسيط والتيسير

وولى استفهاما أو حرف ندا أو نفيًا أو جاذبة أو مسندا¹³

فقد ذكر خمسة شروط في إعمال اسم الفاعل وقد نوع في الشواهد من شعر من ذلك

أن يأتي اسم الفاعل معتمدا على موصوف قال الأعشى ميمون بن قيس

كناطح صخرة يوما ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

كما كان كثير الاستشهاد من القرآن الكريم كوقوع اسم الفاعل صلة لأل (إن اسم

الفاعل إذا وقع صلة لأل عمل المذكور مطلقا حالا كان أو مستقبلا أو ماضيا وإنما عمل

مطلقا لأنه صار بمنزلة الفعل)¹⁴.

وقف عند بعض الآيات (نَ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا

يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ) الحديد 18 وقوله تعالى (فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا فَأَنْرَنَّ بِهِ نَقْعًا)

العاديات 4.3 قلت جعله واقعا صلة أل مسوغا لعطف الفعل عليه فيه نظر لأنه قد جاء

عطفا لفعل على الاسم غير واقع قال تعالى (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ)

الملك 19 واتجه المكودي إلى إثبات أصالة الدرس النحوي، وتجديده عن طريق ملامسة

متن ابن مالك الذي شرحه كبار النحاة كابن عقيل 769هـ والأشموني 879هـ اللذين كانا

يؤثران القراءات القرآنية في الاستشهاد خاصة الكوفيين حمزة والكسائي إلا أنه عمل

مخلصا على التماس الدقة في التسهيل لجعل النحو العربي خليا من التزمت الذي انتاب

بعض المصنفات كما هو الشأن عند ابن مضاء 592هـ الذي أعلن ثورة الظاهرية على

المدارس النحوية، فقد وجد في كلام الله الأرضية الثابتة لاستلهام منهجه.

ومن كبار النحاة الذين خدموا النحو المغربي ابن زكري ال الفاسي 1143هـ الذي لاحظ

أن هذا النحو ضرورة للغوي فهما ودرسا وللنحوي تطبيقا وتفصيلا. فهو من أهم العلوم

اللغوية في الترحيح بين الأقوال المتباينة واستنباط القواعد النحوية. وكان يرى قد يخطئ

من يظن بأن الدلالة اللغوية تختصر على المستوى المعجمي، ولا تتجاوز إلى المستوى

النحوي الذي يمثل في الحقل اللغوي كل الأنماط التركيبية.

إنّ الاهتمام به دليل على الأصالة فقد صان اللغة من الابتذال ومنح القدرة للمهتمين بها من الولوج في أسراره واستقراء حقائقه والحرص على بيئته تحقيقا وتوثيقا ما جعل الدّرس النّحوي ينشأ على يد كبار العلماء كالخليل وسيبويه لتستقرّ ضوابطه ومضامينه في مصنفاتهم.

ونستطيع قوله هو أنّ ابن زكري الفاسي في كتابه شرح الفريدة للسيوطي يرى ضرورة الإحاطة بالمسائل النّحويّة الواردة في القرآن الكريم، مع العناية به حتى يتّضح التّفسير والفهم للنصوص أكثر بلغة القرآن مع علم دقيق بالإعراب، فجهده جليّ وإسهامه واضح وتميّزه بخدمة القرآن كان مدعاة لغيره للاجتهاد (قصدت به حل ألفيّة الإمام العلامة سيدنا الشّيخ جلال الدّين السيوطي. ووشحته بفوائد يضطر إليها النّجيب، ويعترف بعظم مقارها الفطن اللبيب، ولا يجد في غيرها مما اطّلت عليه ووصل علمي إليه والكلام مع أهل الإنصاف، ولا عبرة بمن معه من الدّعوى ما يصد عن جميل الأوصاف)¹⁵ كانت قراءته لها قراءة واعية، فهو كان يدرك أهميتها ومعانيها تحتاج إلى معرفة عميقة بالنّحو العربي. استطاع الإبانة عن معاني المتن مع الإعراب والالتزام بما ذهب إليه النّحاة الأوائل. لم يكتف بالشرح بل قارب بين آراء السيوطي وما جاء في خلاصة ابن مالك مع إبداء موقفه في بعض المسائل من ذلك قول السيوطي:

وحذف عامل أجز، ويلزم في بدل من فعله ينتظم

كويله وويحه لبيكا سبحان مع معاذ مع سعديك

وعجبا منه وحمدا وشكرا كذا كرامة سلاما حجرا¹⁶

وقد مال إلى تأييد السيوطي ونقد ابن مالك (إنّ المصدر النّائب عن فعله ن قسم الصّدر المؤكد، وهو في معنى الاستثناء من قوله " وحذف عامل المؤكد امتنع ")¹⁷ وما يميّز شرح الفريدة الإتقان والإلمام، وأنّسم بالتدرج في المعنى في الإطار العلمي اقتنع بالعلاقة المنطقيّة بين منهج النّحاة والمناطق، فانتصر لرأيه ودافع عنه، وتعمق في التّفصيل، وأقر بوحدة المعنى في الحكم دون التّفيد بوحدة البيت في النّظم. فقد أعاد البحث في بعض الموضوعات، وأفاض فيها كالإضافة، فتعمق وأعمل عقله فناقشها مناقشة دقيقة (الإضافة على ثلاثة أقسام: منها ما هو على معنى في وضابطه أن يكون المضاف إليه ظرفا

للمضاف زما نحو (بل مكر الليل) سبأ 33 أو مكانيا نحو (يا صاحبي السّجن) يوسف 41 ومنها ما هو على معنى من وضابطه أن يكون المضاف إليه جنسا للمضاف. ومنها ما هو على معنى اللام).¹⁸

إنّ منهجه جمع فيه بين منهج النّحاة، ومنهج الفقهاء والفلاسفة، إذ فسّر عدة قضايا نحويّة، واستدل عليها بكثير من الآيات القرآنيّة والأشعار وأقوال العرب. وكان غرضه الذي امتثله في كتابه التّوضيح والإقناع، والتّبسيط والتّخفيف على المتعلّم وتسهيل الطّريق لطالب العلم من الاقتراب من القرآن العظيم، وذلك بضم ما جاء في المؤلفين الفريدة والخلاصة بين دفتي كتاب واحد. وأزال التّشكيك والوضع، وقدم صورة سليمة لعلم النّحو، كما أعطى دفعا جديدا للتّأليف لتعزيز الحركة اللغويّة.

3. التّأليف والتّصنيف: خلف النّحاة المغاربة كتبا كثيرة وجليّة في قيمتها، يرجع إليها المتعلّمون والباحثون، إذ يجدون فيها تفصيلا جامعا لقواعد النّحو العربي. فهم لم يقتصروا على النّحو البصري، بل تعدّوا جهدهم إلى أكثر من ذلك من آراء الكوفيين حين يلتمسون ما يطابق توجههم. ومن هنا جاءت مؤلّفاتهم نفيسة، وكانت المدد الثّري في الدّرس النّحوي، فعُدّت من الأصول التي أصلت النّحو العربي. فمؤلّفاتهم صححت بعض المسائل وذكرت أخرى لم ترد لدى المشاركة، حكّموا فيها الصّواب على أسس متينة وموثّقة بآيات الدّكر الحكيم وما احتوته القراءات القرآنيّة، مع الاستعانة بالشّواهد الشّعريّة، وحتى لغات العرب الفصيحة كتميم وهذيل وبنو عقيل.

وكان على رأس المصنّفات ما أنجزته المحاضر الشّنقيطيّة إذ استثمر علماءها ما كتبه كبار النّحاة كابن مالك وابن هشام ومن أوائل النّحاة الذين خدموا الدّرس النّحوي المغربي المختار بن الأمين 1160 هـ الذي كتب كتابا عدّ يومها من أنفس الكتب في النّحو العربي شافي الغليل في علوم الخلاصة والتّسهيل بحث فيه مسائل مُحكمة (لخص في شرحه للخلاصة توضيح ابن هشام وتصريح خالد الأزهري، ونصوص الأشموني وتنبهاته التي كانت الأولى وآراء ابن الدّماميني 827 هـ في شرح التّسهيل وربما نقل من مساعد ابن عقيل).¹⁹ فحرصه تحظى عقبه اللحن بوضع ضوابط تصون لغة القرآن، فكان ما وضعه إشراقا لعصمتها من الرّطانة. ولم يخل حديث في القضايا النّحويّة من الاستشهاد بالقرآن الكريم، هذا ما نلمسه في هذا الكتاب. ومن القلائل الذين استدلّوا بالأحاديث

النّبوية الشريفة مثل ارتكازه في إثبات اتصال اللام بخبر كان. عن أم حبيبة زوج الرسول صلى الله عليه وسلم قال وإني كنت عن هذا لغنيّة²⁰ وكذلك الأشعار الكثيرة المبنوثة في شافي الغليل. ورغم قيمة الكتاب في الدرس النحوي المغربي لم يُحقّق. فقد أثرى الدرس النحوي المغربي، فأصبح يملك روافد لكل المسائل النحويّة ساعد طلبه العلم من الدخول إلى التّعميد والتأليف، ومنحتهم القدرة العقليّة والعلميّة على مواجهة اللحن الأمر الذي دفع بهم إلى الاجتهاد، ووضع الصّواب لتتمكين المتعلّم من فهم أسرار كتاب الله، وتعبئتها لغويا حتى لا يتوغل الدّخيل إلى لغته.

كما كان المختار ابن بونا 1810هـ من أهل العلم الذين عدّوا العلم بالتراث منقبة للباحث ومدعاة للتفاخر به. فقد صيّر شيئا عظيما، وكان دافع القرآن الكريم جليّا وواضحا، مع اهتمامه بالدّرس النحوي. حرص على انتقاء وتمحيص المادة اللغويّة الهائلة ليصطفي منها ما يراه سليما وأصيلا تدعو الحاجة إلى تأصيله. يدفعه إلى ذلك التحري والتدقيق مع تجنب ما لا داعي إلى الإطناب والتّطويل. ولابن بونا في مؤلفاته إثبات ما جاء به القدامى من أهل العربيّة عن الدرس النحوي فقد عدّه من أسرار الدرس اللغوي العربي الأصيل. له أصول أفاد منها في تأصيل النحو العربي، ولم يأت عمله دعوة إلى التقليد إنّما عمل على ضبط أسس النحو العربي، وإثبات حقائقه من خلال فلسفته ومنهجه في الكتابة قال عنه ابن الأمين (طوّق بعلمه كلّ عاطل، ووردت هيم الرجال زلاله فصدر منهم وهو ناهل، لا يوجد عالم بعده إلا وعليه الفضل الجزيل، بما استفاد من مصنفاته وتلقى من مسنده²¹).

عرفت حياته انتعاشا منذ دراسته بتسهيل ابن مالك وشروحه حيث حملت معها شحنة فائضة دفعته إلى البحث عن المزيد فوقع على شرح الدّماميني، وراح يقبل على تلقي العلم والمعرفة من أفواه العلماء في مختلف العلوم الشّرعيّة واللغويّة في المساجد المشهود لهم بالكفاءة منهم المختار بن حبيب الجنكي وخديجة بنت العاقل الدّيمانيّة على دراسة اللغة العربيّة وأصول الدّين.

وقد انكب على النّحو بالدراسة والبحث في جميع مسائله، وما زاد اعتناؤه به محاولة فهمه للقرآن الكريم شأنهم في ذلك شأن العلماء خاصّة المنطقة، وكذا حرصه على حفظ الدرس النحوي.

ومن أهم ما ألف الرّجل كتابه الجامع بين التّسهيل والخلصة المانع من الحشو والخصاصة، وقد قسمه إلى قسمين: الأول التّذليل المعروف بـ الاحمرار-فيه تفرّدات وإسهامات اجتهد في إضافتها إلى النّحو العربي (تناول فيها جمع أبواب النّحو في الخلاصة، مع زيادة فصول حذفها ابن مالك في الخلاصة مثل الموصول الحرفي، والتّاريخ والقسم، والهجاء ومخارج الحروف وبعض التّصريف، مثل الإلحاق والقلب نحاً فيها نحو الإمام السيّوطي)²² في هذا القسم إثبات لوحدة نسيج درس النّحو يحتوي على إضافات معينة ترتبط بتكوين الملكة التي تدركها الأذهان، ويكون صورة حقيقيّة للنّحو العربي يتركز عليه إدراك المتعلّمين. وهكذا أضفى التّدقيق العلمي على الموضوعات التي تثير الاهتمام، كما يلعب دوراً كبيراً في تسهيل عمليّة الحفظ فطلبة العلم يميلون إلى النّصوص الدّقيقة، فتحاليله النّحويّة جاءت متميّزة به، استحوذ على ملكة تلاميذه التي وجدوا فيها راحة أدركوا من خلالها أصالة النّحو العربي. فهو لم يكتف بما ورد في ألفيّة ابن مالك بل أعاد بناء قواعد مدرسة ابن مالك، وهذا برد إلى الخلاصة ما همّش من آراء في الكافية والتّسهيل يقول ابن بونا في عمل المصدر

وأهمل المحدود والمؤخرا مصغر من حذفاً والمضمرا

ما بتابع والأجنبي فصل وغير مفرد وعن بعض عمل²³

وجاء في الكافية:

وأهمل المضمير والمحدود والمصدر فارقه التّوحيد

ورب مجموع ومحدود عمل وبالسّماع لا القياس قد نقل²⁴

العمل الثّاني: فقد وضع مجموعة من الحواشي صاغها في تراكيب مختزلة أعاد فيها مفاهيم واستعمالات ضبط فيها مواطن الاتّفاق والخلاف، والشّارد والنّادر مع أدلتها. كلّ هذا قيده في الطّرة التي لا يمكن الاقتراب منها إلا من أوتي ملكة في النّحو، فهي تحوي مسائل مقفلة تتطلب تمرساً وكان لعلماء الشّناقطة إسهام في توضيحها وتبسيطها، علّم من الأعلام الذين فتحوا مقفلها عبد الودود بن عبد الله الحبيلاوي في مؤلّفه روض الحرون من طرة ابن بون. وتبعه عدد من أهل النّحو في شرحها وتذليلها بالحواشي والشّروح لكن لم يصلوا إلى استكمالها.

فَنظَرْتَهُ الْمَوْضُوعِيَّةَ النَّزِيهَةَ إِلَى مَا كَتَبَهُ فَهُوَ لَا يَكَادُ يَخْرُجُ عَمَّا كَتَبَهُ مِنْ سَبْقِهِ، فَقَدْ كَانَ لَهُ وَعِي بِجَمِيعِ الْقَضَايَا النَّحْوِيَّةِ. فَتَتَّبَعُ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ مَالِكٍ، وَلَمْ يَقِفْ عِنْدَ هَذَا بَلْ كَشَفَ عَنِ مَسَاهِمَتِهِ الْكَبِيرَةِ فِي تَطْوِيرِ الدَّرْسِ النَّحْوِيِّ، وَلَوْ نَظَرْنَا إِلَى الْكُتَابِينَ لَوَجَدْنَاهُ مِنْ أَكْثَرِ النَّحَاةِ اسْتِعَابًا لِأَلْفِيَّةِ ابْنِ مَالِكٍ حَتَّى وَصَلَ إِلَى ذِكْرِ مَسَائِلَ لَمْ يَرِدْ لَهَا شَاهِدٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ (لَقَدْ أُورِدَ مِنْ أَسْمَاءِ الْأَصْوَاتِ أَزْجَرُ الْحَيَوَانَ نُحْوًا مِنْ خَمْسِينَ اسْمًا صَوْتًا، قَالَ عَنْهَا إِنَّ كُلَّهَا مَصْحُوحٌ وَمَدْرُوسٌ بَيْنَمَا لَمْ تَرِدْ شَوَاهِدَ اسْتِعْمَالِ إِلَّا لِنَحْوِ عَشْرَةِ مِنْهَا)²⁵.

خاتمة: بعد هذه الوقفة المتواضعة مع جهود نحاة المغرب أنهم لم يتخرجوا من في مخالفة نحاة المشرق، وتغليطهم في مجموعة من المسائل، ولم يذوبوا في نحو المشرق، فقد أثبتوا ملكتهم في التّرجيح والاجتهاد. ولم يكونوا متمتين في نهجهم، بل كانوا متسامحين فاجتنبوا الطّعن في نحو المشاركة، ولم يرموهم بالقصر في العريّة.

فكانت غايتهم النبيلة هي إثراء النحو العربي وتأصيله انطلاقاً من القرآن الكريم والكلام العربي الفصيح، وتوسعة الدراسات النحويّة، وازدياد النشاط اللغوي. فلم يتركوا صغيرة ولا كبيرة من الظواهر النحويّة إلّا خاضوا فيها بالتأليف والشرح لضبط النحو العربي ضبطاً سليماً. فبفضل جهودهم نما النحو العربي، وأقبل أهل العلم على مدارسته، فكانت الرّوايا والمساجد مودعة بالإشعاع، رابطة حبله المتين، داحضة النّسيان والإهمال.

توصيات:

- الاهتمام بالنحو المغربي، وترشيد الباحث إلى الاقتراب منه.
- العمل على توسيع دائرته، والرّفْع من البحوث حول متونه وشروحه،
- الانفتاح على الدّراسات الحديثة مع المحافظة على أصالته.

المصادر والمراجع

- 1- الفارابي (أبو النصر بن محمد بن طرخان)، إحصاء العلوم - تحقيق: عثمان أمين، دار الفكر العربي، ط2 مصر ط2 1949، ص45.
- 2- ابن خلكان (إبراهيم بن أبي بكر)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس دار المصادر بيروت 1972، 2/235.
- 3- د المختار ولد أباه، ه تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط2 1429، ص575.
- 4- صالح بلعيد، ألفية ابن مالك في الميزان، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، ص 15
- 5- مختار ولد أباه، تاريخ النحو، ص291.
- 6- موسى الشمولي، شرح ألفية ابن معط، مكتبة الخرينجي الرياض ط1 1985، 1/33.
- ابن مالك (محمد بن عبد الله)، متن الألفية، المكتبة الشعبانية بيروت لبنان، ص 34.
- 8- علي موسى الشمولي، شرح ألفية ابن معط، 1/860.
- 9- نفس المصدر، 1/250.
- 10- السبتي (ابن أبي ربيع)، البسيط في شرح جمل الزجاجي تحقيق: عياد بن عبد الثبيتي، دار الغرب الإسلامي بيروت 1986 ص755
- 11 نفس المصدر، ص. 352
- 12 - المكودي (عبد الرحمن الحاج صالح)، شرح المكودي على ألفية ابن مالك، تحقيق: الدكتورة فاطمة راشد الزجاجي الناشر جامعة الكويت، ص 15
13. نفس المصدر، ص 15.
- 14 - محمد المختار ولد أباه، تاريخ النحو القفي المشرق والمغرب ص 450.
- 15- ابن زكري الفاسي، عنوان المخطوطة المهمات الفريدة في شرح الفريدة، المقدمة، جامعة الملك سعود، الرقم 7039 تاريخ النسخ 1296هـ.

- 16 - السَّيُوطِي (جلال الدِّين)، متن الفريدة، مطبعة دار إحياء الكتب العربيَّة مصر ص 29.
- 17 نفس المصدر، باب الإضافة.
- 18 - محمَّد المختار ولد أباه، تاريخ النَّحو القفي المشرق والمغرب ص 393.
- 19 - محمَّد المختار ولد أباه، تاريخ النَّحو القفي المشرق والمغرب ص 450.
- 20- نفس المصدر، ص 451.
- 21 أحمد أمين الشَّنْقِيطِي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، تحقيق: فؤاد السَّيِّد، مطبعة المدني ط 4094، ص 97
- 22- محمَّد المختار ولد أباه، تاريخ النَّحو العربي في المشرق والمغرب، ص 457.
- 23- المختار بن بونا الجكني، الألفيَّة، ط 1426 هـ نواكشط، ص 130.
- 24- ابن مالك، شرح الكافيَّة الشَّافِيَّة، تحقيق: عبد المنعم أحمد هريدي، جامعة أم القرى مكة ط 1111/1.3.
- 25 - محمَّد المختار ولد أباه، تاريخ النَّحو، ص 458.